فاعليّة المستويات اللّسانيّة وتأثيرها
على علاقة تحويل المعاني وتأويلها

د/ سعاد بسناسي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة وهران

تمهيد:

إنّ اللّغة في أصلها مستويات، وكلّ مستوى منها يخدم الآخر، وكلّها متكاملة ومجتمعة تتفاعل، لتحقيق غايات لسانيّة وأدبيّة، تتلخّص في تحديد الإيحاءات الصّوتيّة، واستخلاص تشكيلاتها وملامحها المقطعيّة وفوق المقطعيّة، كما تُسهم في المساعدة على فهم وتمييز تحوّلات المعاني الإفراديّة، واستكناه الدّلالات التّنويعيّة للنّصوص الأدبيّة وتأويلاتها المتباينة.

فالحديث عن المستويات اللّسانيّة، يحتّم علينا الإشارة إلى علاقاتها التّكامليّة والتّفاعليّة فيما بينها؛ لأنّ التّفاعل صيغة تدلّ على التّشارك والمشاركة بين شيئين. ومن هنا، قامت إشكاليّة هذه المداخلة، التي تتلخّص في كيفيّة التّعامل مع النّص الأدبيّ فهما، وتحويلا، وتحليلا، وتأويلا، ثمّ ضبط طرائق ذلك كلّه، وتوضيح مناهجه تحليلا، وتمثيلا، وتعليلا، إضافة إلى الدّراية الحتميّة بخلفيّات النّص الأدبيّ، ومعرفة مجمل أساليبه، وحدوده؛ ذلك لأنّ الأمر لا يبدو على هذا القدر من الوضوح والبداهة بالنّسبة لمجموعة من القواعد العرفيّة وشروط التّأويل

التي تتضمّنها نظريّات البلاغة والسّرد؛ إذ إنّ المقولات والوحدات والمستويات الدّاخلة فيها تختلف عن تلك التي تستخدم في النّحو والدّلالة والتّحليل التّداوليّ للّغات الطّبيعيّة، ممّا يفرض تمييزا واضحا بين عناصر هذه الشّبكة من المنظومة العلميّة"[1]" وهذا الاختلاف في الوحدات والمستويات لا يمنع من وجود تكامل وتفاعل بينها.

وقد دار جزء كبير من البحوث الاجتماعيّة اللّغويّة حول خواصّ الأبنية الصّرفيّة الصّوتيّة والدّلاليّة؛ ممّا يجعل عمليّات الانكماش الدّلاليّ والتّداوليّ التي تلاحظ على الخطاب بارزة، وترك في الظّل ارتباطها الوثيق باختلاف السّياقات الاجتماعيّة، هذا عدا الفروق الأسلوبيّة المعروفة، مثل المعاجم الخاصّة وأطوال الجمل ودرجة تعقيدها"[2]" والمفروض حين التّعامل مع البنى اللّسانيّة يكون بدءا بفهم الإيحاءات الصّوتيّة لمكوّناتها، ومعانيها الإفراديّة باختلاف تقسيماتها ووظائفها اللّسانيّة، كما ينبغي تحديد الدّلالات التّركيبيّة للنّصوص وأساليبها البلاغيّة، وهذا في حدّ ذاته أكبر تكامل لسانيّ تفرضه طبيعة اللّغة.

الإيحاءات الصّوتيّة

إنّ الوحدات الصّوتيّة القاعديّة هي أساس اللّغة، وهي في أصلها وحدات مقطعيّة، وفي الأصوات إيحاءات ينبغي معرفتها لفهم النّصوص بأنواعها؛ ومنه فإنّ النّص لا تتحقّق أهدافه إلاّ بمعرفة مختلف الملامح والتّلوينات والتّشكيلات الصّوتيّة التي تعتبر وحدات صوتيّة صغرى تُداخلها التّنوّعات التي تدرس ضمن ما يسمّى بنظريّة الفونيم، الذي هو وحدة صوتيّة تحدث تمييزا في المعنى، أو هو أصغر ذرّة في الكلام. ومثلما يمكن أن تتسبّب تجزئة الذرة أو تغييرها في تغيير المادّة التي تتكوّن منها، كذلك يمكن أن يتسبّب تغيير الفونيم في فقدان الكلمة لمعناها والتّحوّل

بها إلى معنى آخر"[3]". والوسيلة المناسبة لمعرفة الفونيمات هي إدراج كلمة مع كلمة أخرى تناظرها في جميع المكوّنات باستثناء مكوّن واحد، وهذا ما يسمّى بالثّنائيّة الصّغرى، أو وضعها ضمن توزيع تبادليّ مع عدد من الكلمات البديلة، ومثل ذلك صيغة (قال) التي يعتبر فيها صوت القاف اللّهويّ المجهور الشّديد المقلقل فونيما تمييزيّا بذكر الصّيغ الإفراديّة الآتية: (سال، ومال، ونال، وغيرها) وصوت اللاّم هو فونيم تمييزيّ فيها؛ لأنّه يميّزها عن (قام، وقاس، وقاب، وغيرها من الصّيغ).

ومعلوم أنّ تمييز الوحدات الدّلاليّة، لا يمكن أن يتمّ من دون الإشارة إلى تقسيم المنطوق إلى وحدات نحويّة ذات درجات متفاوتة من التّعقيد، وعلى وجه الدّقة إلى مفردات وجمل، إمّا باستخراج هذه الوحدات والإشارة إلى تراتبها (الملامح الارتقائيّة) أو عن طريق تحديدها وإدماجها (الملامح التّحديديّة) مع ما تلعبه الملامح الزّائدة من دور في تحديد المعاني وتحويلها وتأويلها.

وإنّ تكرار الأصوات في النّص له إيحاءات تأثيريّة وتحويليّة هامّة؛ فمحمّد مفتاح يعتبر رمزيّة الأصوات من اللّعب الذي يفوق الجد"[4]" لأنّه يعتبر النّص مدوّنة حدث كلاميّ ذي وظائف متعدّدة، تقوم على عدد معيّن من المقاطع التي تكون في شكل سلسلة تنتج سلسلة من القضايا الفكريّة، التي تكوّنها سلسلة من الجمل، لتؤدّي دلالات معيّنة؛ فالنّص تراعى فيه إيحاءات المواد الصّوتيّة، وتشكيلاتها من تكرارات، وتقليبات، ورمزيّة، وجرس، وتنغيم، ونبر، ووزن، وغيرها وتأثير هذه الملامح الصّوتيّة في مفردات وتراكيب النّص المتفاعلة لإنتاج دلالات تتحوّل وتتأثّر وتتنوّع بحسب السّياق والمقام الواردة فيه.

ويمكن استخلاص خصوصيّات النّص من خلال تراكم الأصوات، واللّعب بالكلمات، وتشاكل التّراكيب، ودوريّة المعنى، وكثافته، وخرق الواقع"[5]" فالصّوت إن كان النّص شعريّا أو نثريّا يلعب دورا هامّا في الإيحاء والتّصوير؛ فالشّاعر مثلا يجعل من الصّوت عنصرا إبداعيّا، وآلة تصويريّة عجيبة، وهي ظاهرة أسلوبيّة تستوقف القارئ والمحلّل للنّص بجماليّات أصواتها، ويبدو التّأثير والتّأثّر من خلال إيقاع الأصوات والكلمات المتفاعلة مع بعضها والمؤثّرة في بعضها، ومختلف التّماثلات الصّوتيّة وإيحاءاتها البلاغيّة؛ فانسجام الأصوات مع بعضها يشكّل الدّلالة النّصيّة؛ بل وينوّعها؛ فالأصوات بحسب مخارجها ومواقعها الصّوتيّة لها دلالة، وباعتبار كمّياتها الصّوتيّة الأساسيّة تحمل جمالية صوتيّة وفنّية وطاقة دلاليّة تنويعيّة بحسب طبيعة الصّوت مهموسا كان أو مجهورا، إضافة إلى مراعاة الأصوات بكمّياتها الثّانويّة من شدّة وتوسّط ورخاوة، وما تحمله الصّفات الفاقة التّمييزيّة من ملامح تمييزيّة ودلاليّة.

المعاني الإفراديّة بين التّحويل والتّأويل

يرتبط التّأويل بالمعرفة من زاويتين: زاوية البحث في موضوع ما عن حقائق أو معارف مجهولة لدى المؤوّل، حيث يشرع في التّنقيب عنها يدفعه إلى ذلك إحساسه بغرابتها، أو حاجته إليها لغاية دينيّة أو دنيويّة إنّها معرفة هدف لذاتها؛ أمّا الزّاوية الثّانية فهي التي يرتبط فيها الفعل التّأويليّ بمعرفة يمتلكها المؤوّل، أي مجموع العناصر والأدوات التّقنيّة، والعلوم المرجعيّة، والمسارات التّحليليّة التي يستعين بها للتّعامل مع موضوعه التّأويليّ باحثا عن ضالته؛ فهي معرفة أداة، ووسيلة لاكتشاف معارف جديدة، ستصبح فيما بعد وسائل تمهّد له السّبيل لمعرفة أخرى تكون موضوع بحث جديد.

وإنّ تجربة التّأويل هي دوران لولبيّ بين المعرفة الأداة والمعرفة الموضوع، للوصول عبر النّصوص إلى حقائق الظّواهر، إنّه اشتغال يسعى إلى امتلاك معرفة ما، أو الإجابة عن أسئلة مقلقة، أو تدبير افتراضات أو تخمينات أو حدوس معيّنة[6] وفي هذه الحركة اللّولبيّة ومن خلالها تتفاعل عناصر العمليّة التّأويليّة، لتخلق فضاء خاصّا للمؤوّل والمؤوَّل وما بينهما من عناصر تكامليّة، لا تكون إلاّ نتيجة تحويلات وتحوّلات دلاليّة تختلف باختلاف الموضوع والقصد.

الدّلالات التّركيبيّة في النّصوص الأدبيّة:

إنّ ترتيب الوحدات الإفراديّة يعتبر مظهرا رئيسا من مظاهر فهم التّراكيب المشكّلة للنّص، وبخاصّة ما يصيبها من مسائل التّقديم والتّأخير، والحذف والإضافة، وما ينتج من دلالات تنويعيّة بسبب التّحويلات التّركيبيّة للجمل العادية البسيطة، التي تتحقّق من خلال إعادة توزيع وحداتها الإفراديّة .

إنّ تطبيق مبدأ التّنسيق"[7]" يشمل الكثير من المنسقات اللّغويّة، وخصوصا إذا ألّف بين الدّراسات النّحويّة والبلاغيّة، ولهذا فإنّ قائمة أنواعه وأصنافه طويلة، منها: أنواع الإحالة وأنواع الضّمائر وأنواع أسماء الإشارة وال وأنواع أسماء الاستفهام وأفعل التّفضيل وأنواع الموصولات... والإجمال والتّفصيل والتّكرير...والتّرابطات المعجميّة مثل تكرار الكلمة نفسها ومشتقّات الكلمة والتّرادف والتّضاد والعامّ والخاصّ والكناية والمجاز المرسل والاستعارة، هذا إضافة إلى عنصر التّنضيد الضّروريّ لتماسك النّص.

والتّنضيد هو أدوات العلائق النّحويّة الآتية، مثل: الواو، أو، أدوات الاستثناء، وحروف التّعليل، وما يدلّ على الغاية والشّرط والجواب، ومع

ذلك فإنّ التّنسيق والتّنضيد غير كافيين، وإن كانا ضروريين؛ فقد تحتوي الجمل على أدوات التّنضيد والتّنسيق ولكنّها لا تكون نصّا؛ وعليه فلابدّ أن ينضاف إليها عناصر أخرى يختلف الباحثون في عددها وفي تسمياتها؛ وأهمّها المرسل والمتلقّي والقناة والموضوع والمقام والهدف. وإذا اجتمع التّنضيد والتّنسيق فإنّ تلك الجمل تصبح نصّا"[8]. وهذه العناصر يضاف إليها عنصر هامّ وفعّال وهو التّشاكل، الذي سنأتي إلى ذكره في عنوان التّحليل.

كما ينبغي تحديد أجزاء القول في البلاغة وعلاقاتها المتبادلة، وفي مستويات وصفها اللّغويّة، والاتّجاه البنيويّ في هذا المقام، يولي الاهتمام بضرورة تحليل علاقات الأجزاء الخمسة المعروفة في البلاغة، وهي: الأغراض، والتّرتيب، والعبارة، والذّاكرة، والفعل بنظائرها في النّظام اللّغويّ الحديث.

وإنّ وصف العمليّات البلاغيّة يقوم على أسس جديدة، باعتبارها تحوّلات أو انحرافات، تتضمّن تصوّرات عديدة، وتميّز بين مجموعتين كبيرتين من هذه التّحوّلات: إحداهما تتّصل بجوهر هذه المادّة، والأخرى بعلاقاتها؛ فالأولى تعاني فيها الوحدات ذاتها من التّحوّل، والثّانية يمسّ التّحوّل علاقاتها فيما بينها لا مبانيها"[9] وهذه العمليّات الجوهريّة لفهم النّص لا تتمّ إلاّ بشكلين، أحدهما حذف الوحدات، والثّاني إضافة وحدات جديدة، وهي في ذاتها تحوّلات وتحويلات.

ولا يتحقّق التّحوّل البلاغيّ في النّص إلاّ بفضل آليّات التّركيب، ومنه فإنّ مستويات التّحوّل عند البلاغيّين، وبخاصّة الجدد تتمّ على عدّة محاور، يتحوّل فيها اللّفظ، والتّركيب، والدّلالة، كما تتحوّل العلاقة بينها كلّها. فالتحوّلات الصّوتيّة تؤدّي إلى تحوّلات أكبر صرفيّة

وتركيبيّة وبلاغيّة (وإذا كان مستوى التّغيير يحيل إلى الصّوتيّات والصّرف، فإنّه عندما يتمّ التّغيير التّركيبيّ في الجمل، وتنجم عن ذلك نتائج بلاغيّة)"[10]" مع ضرورة مراعاة تحديد التّحوّلات التّركيبيّة، طبقا للمنظور التّوزيعيّ (DISTRIBUTIONNEL) لأنّها تعمل بطريقة ملائمة لارتباط محتوى النّص الأدبيّ، وتربط عناصره ومعانيه.

كما تتوجّه البلاغة إلى المستمع أو القارئ لتؤثّر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصيّة في البحث اللّغويّ النّصيّ، إلاّ أنّ العلاقة العكسيّة لا تقلّ عنها أهمّية، وهو غير متفرّد في ذلك؛ لأنّ عمليّة الاتّصال تجمع العلاقة بين أطراف الاتّصال الأساسيين (نصّ- منتج- متلق) وكيفيّات التّفاعل بينها، ويمكن أن تتّضح العلاقة في عدّة تصوّرات للبلاغة التي عُدَّ علم النّص وريثها الشّرعيّ؛ فالبلاغة يمكن أن تصل إلى الهدف الذي يتمثّل في إرشاد السّامع أو القارئ، إلى التّعرّف على المتكلّم أو الكاتب بطرق ثلاث: بشرح تعليميّ موجّه في المقام الأوّل، وبغرض ممتع، ثمّ من خلال طريقة عاطفيّة، أي بلاغيّة بارعة"[11]" وهذه الطرق الثّلاث مكمّلة لبعضها، وتؤدّي بتفاعلها وتأثّرها إلى هدف واحد.

فالبلاغة أصلا، هي نظام من القواعد التي تقوم مهمّته على التّوجيه في إنتاج النّص الأدبيّ، وهي نظام يتحقّق في النّص، تؤثّر على القارئ بإقناعه، أو تؤثّر على المتلقّي في عمليّة الاتّصال الأدبيّ. وللبلاغة دور مماثل عند إنتاج النّص، وذلك فيما يتّصل بالعناصر التي تتبعها من أجل التّأثير والإقناع.

وإنّ العلاقة بين المرسل والمتلقّي التي حرصت البلاغة على إبرازها، قد وجدت طريقها إلى نظريّة الاتّصال، وبالتّالي إلى التّداوليّة التي عُنيت بالسّياقات المختلفة؛ فالبلاغة تداوليّة في صميمها؛ بيد أنّ البلاغة

والتّداوليّة تعتمدان على اللّغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقّي، وإنّ للأجناس البلاغيّة قيمة منهجيّة، سواء في نظريّة النّص أم نظريّة الأسلوب القائمة على الاتّصاليّة. ولا يعنى هنا بما تحدثه من أثر جماليّ فحسبُ؛ بل بما تسهم به في تشكيل مضمون النّص ودلالاته المتنوّعة والتّداعيّات في أذهان المتلقّين؛ فدارس البلاغة والخطاب يتعيّن عليه تبنّي منهج اللّسانيّات الوصفيّة ببعده الدّيناميكيّ المفتوح، محاولا تحديد الأشكال اللّغويّة المناسبة في النّص"[12]" الذي تفتح من خلال قراءته أبواب التّحليل والتّحول ثمّ التّأويل.

بين التّحليل والتّحويل والتّأويل

إنّ عمليّة التّحليل ذات أهمّية كبرى في فهم النّص، بمعيّة عمليّات أخرى؛ فهي تجمع بين التّشاكل والتّباين والقصديّة *(INTENTIONNALITE)* والتّفاعل *(INTERACTION)* بمعيّة العناصر اللّغويّة: الأصوات والمعجم والتّركيب بجميع أنواعه، والإيقاع والسّرد المرتبطين بالفعل اللّغويّ، والكلّ يبحث في الدّلالة الكامنة في مكوّنات الخطاب كلّياته وجزئيّاته؛ لأنّ بنية الخطاب تقتضي وجود بنيات كليّة، هي في حدّ ذاتها من خصائصه الفنّية والتّركيبيّة"[13]" وإنّ العلاقة القائمة بين التّشاكل والتّحليل ضرورة؛ لأنّ التّشاكل يقوم على التّحليل بالمقوّمات الذّاتيّة، والمقوّمات السّياقيّة؛ فبالتّحليل تكتشف بواطن النّص، ومرتكزاته.

كما تتّخذ رؤية النّص مسارا معرفيّا، بتخريج النّص تخريجا تأويليّا (ومعنى التّأويل هو إخراج دلالة اللّفظ من الدّلالة الحقيقيّة إلى الدّلالة المجازيّة، من غير أن يخلّ ذلك بعادة لسان العرب في التّجوّز، من تسمية الشّيئ بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير لك من الأشياء التي عدّدت في تعريف أصناف الكلام المجازيّ)"[14]" وهذه كلّها مجتمعة

ومشتركة ومتكاملة تحقّق دلالة النّص البلاغيّة، ويرى بارط (*BARTH*) أنّ وحدة النّص ليست في منبعه وأصله وإنّما في مقصده واتّجاهه"[15]" الذي تعنى به العمليّة التّأويليّة بالدّرجة الأولى. وإذا كان التّأويل يُستَمَدُ من مرجعيّة البرهان من جهة، ومن قوانين الكلام من جهة أخرى، فإنّ درجات النّاس في العلم بالجهتين متفاوتة، وهذا هو الذي يجعل عمليّة الإجماع صعبة، بل مستحيلة. ومعنى ذلك أنّ الاختلاف والتّعدّد يظلاّن قائمين رغم بذل الوسع في الوصول إلى الحقائق البرهانيّة اليقينيّة من جهة، وفي فهم قوانين اللّغة التي هي أساس التّأويل من جهة أخرى"[16]" مع ذلك نشير إلى أنّ المعاني في النّص تكون انسيابيّة؛ لأنّ المعنى هو ذلك الكائن الانسيابي ذي الحركة المتناوبة داخل النّص حيث وراء الكتابة ليقدّم رموزه كمفاتيح لعمليّة الفهم؛ فلا توجد فكرة محضة، فكلّ تلفّظ بفكرة ما، هو تأويل لها، كما أنّه لا يوجد فهم محض، فكلّ فهم هو قراءة – للقراءة، ومنه فإنّ المعنى هو صيغة الاشتراك بين الفهم والقراءة، فإنّ ما ينتج المعنى، ليس النّص بذاته بل هي القراءة المستعادة في شكل اللّغة"[17]" بمستوياتها؛ ولهذا ارتبط التّأويل بالمعنى لارتباطه بالنّص.

مصادر ومراجع البحث

1. بلاغة الخطاب وعلم النّص، صلاح فضل، مكتبة لبنان، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، لونجمان، ط1، 1996م، ص10.

2. نفسه، ص10/11.

3. ينظر، أساسيّات اللّغة، رومان جاكوبسن وموريس هالة، تر، سعيد الغانمي، المركز الثّقافي العربي، ط1، 2008م، ص14، باختصار وتصرّف.

4. تحليل الخطاب الشّعريّ، استراتيجيّة التّناص، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، المركز الثّقافيّ العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ص215.

5. تحليل الخطاب الشّعريّ، استراتجيّة التّناصّ، المركز الثّقافيّ العربي، بيروت، البيضاء، ط2، 1987م، ص16.

6. تقابلات النّص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي، محمّد بازي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، 2010م، ص129.

7. التّلقّي والتّأويل، محمّد مفتاح، ص158.

8. نفسه، ص158، وما بعدها.

9. صلاح فضل، ص104، وما بعدها بتصرّف.

10. نفسه، ص 107.

11. علم لغة النّص، المفاهيم والاتّجاهات،ل سعيد حسن بحيري، مؤسّسة المختار للنّشر والتّوزيع، ط1، 2004م، ص22/21باختصار.

12. ينظر، علم لغة النّص، المفاهيم والاتّجاهات، سعيد حسن بحيري، ص 23 وما بعدها.

13. لسانيّات النّص، أحمد مداس، ص22.

14. الخطاب والتّأويل، نصر الدّين أبو زيد، المركز الثّقافي العربيّ، ط2، 2005م، ص64.

15. درس السّيميولوجيا، بارط رولان، تر، عبد السلام بن عبد العالي، دار طوبقال، المغرب، ط2، 1986م، ص87.

16. الخطاب والتّأويل، نصر الدّين حامد أبو زيد، ص65.

17. اللّغة والتّأويل، مقاربات في الهرمينوطيقا الغربيّة والتّأويل العربي الإسلاميّ، عمارة ناصر، دار الفارابي، منشورات دار الاختلاف، ط1، 2007م، ص37، باختصار وتصرّف.